مظاهر التسامح الإسلامي
في العلاقة بين المسلمين وغيرهم

أ.د/ محمد بدر معبدي(*)

أولاً : الإسلام دين التسامح

إذا أمعنا الفكر والتأمل واستعدنا قراءة التاريخ نجد أن الإسلام كان السابق الأكبر إلى بث التسامح، وحرص أول ما حرص على الأخوة الإنسانية بين البشر؛ وربما إلى الوحدة الإنسانية ميما اختلفت الألوان وتباينت اللهجات، ولقد قرر الإسلام هذه الحقيقة فى أول نداء إنساني من نوعه قبل أن تعرف ذلك المنظمات التى تنادى بحقوق الإنسان، وقبل أن تعلنها المنظمات العالمية والهيئات الدولية، يقول الله تعالى: ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾[الحجرات:١٣]، وفى العصور المختلفة عمل المسلمون على تدعيم الوحدة الإنسانية، ونشروا التسامح بين المسلمين وغيرهم، وقد رأينا رسولنا العظيم محمداً ﷺ استأجر عبد الله بن أريقط وهو مشرك ليكون دليلاً له فى الهجرة، ولا يلزم من كونه كافراً ألا يوثق به فى شئ أصلاً ، لأن الرسول ﷺ وجد من الحكمة الاستعانة بمثل هذا الرجل ما دام أميناً ، والحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق الناس بها.

(*) العميد السابق لكلية الدراسات الإسلامية والعربية – فرع البنات جامعة الأزهر بأسوان.

ثانيا : الاستعانة بغير المسلمين في أعمال الدولة الإسلامية

ومما هو معلوم أن العلماء قد أجازوا لإمام المسلمين أن يستعين بغير المسلمين وبخاصة أهل الكتـــاب فى بعض الشئون السياسية والحربية، ما داموا أهل ثقة وأهل عهد لا يقاتلوننا، ولا يقفون حجر عثرة فى طريق الدعوة الإسلامية، قال تعالى: ﴿لا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ * إِنَّمَا يَنْهَاكُمْ اللَّهُ عَنْ الَّذِينَ قَاتَلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَأَخْرَجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ وَظَاهَرُوا عَلَى إِخْرَاجِكُمْ أَنْ تَوَلَّوْهُمْ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ فَأُولَئِكَ هُمْ الظَّالِمُونَ﴾ [الممتحنة:٨-٩]. والإسلام وهو دين التسامح حرص على رعاية العلماء والحكماء من أهل الملل المختلفة، وقد بلغ بعض النابغين من غير المسلمين الحظوة عند خلفاء المسلمين وعامتهم، يقول الفيلسوف (داربر) أحد المؤرخين الأمريكان " إن المسلمين الأولين فى زمن الخلفاء لم يقتصروا فى معاملة أهل العلم من النصارى واليهود وغيرهم على مجرد الاحترام، بل فوضوا إليهم كثيراً من الأعمال الجسام ورقوهم إلى المناصب المختلفة فى الدولة حتى إن هارون الرشيد وضع جميع المدارس تحت مراقبة من يثق فيه من المسيحيين وهو (حنا مسنيه)، وقال فى موضع آخر: كانت إدارة المدارس مفوضة إلى المسيحيين تارة وإلى اليهود تارة أخرى، ولم يكن ينظر إلى البلد الذى عاش فيه العالم ولا إلى الملة التى يتبعها أو الدين الذي يدين به؛ بل لم يكن الإسلام ينظر إلا إلى مكانة العالم من العلم والمعرفة، قال الخليفة العباسي المأمون: الحكماء هم صفوة الله من خلقه، ونخبته من عباده لأنهم صرفوا عنايتهم إلى نيل فضائل النفس الناطقة، وارتفعوا بقواهم عن دنس الطبيعة، هم ضياء

العالم، وهم واضعوا قوانينه، ولولاهم لسقط العالم فى الجهل والبربرية، وقال فى موضع آخر: إن العرب قد زحفوا بجيش من أطبائهم اليهود ومؤدبى أولادهم من النصارى[1]،ففتحوا من مملكة العلم والفلسفة ما أتوا على حدوده بأسرع مما أتوا على حدود مملكة الرومانيين.

ثالثا : أمثلة لإثراء غير المسلمين للحضارة الإسلامية

ونذكر بعض العلماء والحكماء غير المسلمين الذى كانت لهم الحظوة فى الدولة الإسلامية :

١- جيورجيس بن بختيشوع: طبيب المنصور ، كان فيلسوفاً كبيراً علت منزلته عند المنصور، فأعلى مكانته حتى على وزرائه، ولما مرض أمر المنصور بحمله إلى دار العامة وخرج ماشياً يسأل عن حاله، وحينما طلب من الخليفة أن يعود إلى بلده ليدفن فيه مع آبائه وأجداده، أمر بتجهيزه ومنحه عشرة آلاف دينار، وأوصى من معه بحمله إذا مات فى الطريق إلى مدافن آبائه كما طلب.

٢- نوبخت المنجم وولده أبو سهل: وهما من أصل فارسى ويتبعان مذهب الفرس، حظيا بمكانة عالية عند المنصور، ثم كانت لأبى سهل ذرية مسلمة، وكانوا جميعاً منجمين، ولهم شهرة عظيمة فى علوم الكواكب. تيوفيل بن توما النصرانى : كان على مذهب الموارنة من سكان لبنان، وحظى بمكانة عالية عند الخليفة المهدى، وقد كان منجماً وله كتب فى التاريخ جليلة، ونقل كتاب أميروس إلى السريانية.

---

(١) الإسلام والنصرانية مع العلم والمدنية للشيخ محمد عبده.

٣- بختيشوع الطبيب وجبريل ولده يوحنا ابن ماسويه النصراني ولاه الرشيد ترجمة الكتب القديمة، طبية وغيرها، وخدم الرشيد من بعده إلى المتوكل، ارتفع شأنهم عند الخليفة هارون الرشيد.

٤- يوحنا البطريق : مولى المأمون علا قدره فى زمنه، أه بناً على ترجمة الكتب من كل علم من علوم الطب والفلسفة.

٥- سهل بن سابور وسابور ابنه وكانا نصرانيين، تولى ساوبر بن سهل بيمارستان جند نيسابور.

٦- حنين بت إسحاق النصراني: اشتهر أيام المتوكل، وكان من أشهر المترجمين لكتب أرسطو وغيره، وكان قد عرف بفصاحة العبارة وحسن الترجمة فى زمن المأمون.

٧- متى بن يونس المنطقى النصراني : كان متفنناً فى جميع العلوم العقلية، أخذ عنه أبو نصر الفارابى وانتهت إليه الرئاسة فى بغداد[١].

ومن هنا يتضح للجميع مدى اهتمام الدين الإسلامي الحنيف بالعلماء والحكماء، وسعة صدره للغريب والقريب على السواء دون تمييز ولا تفريق فالكل يوزن بميزان واحد، وهو ميزان العلم والحكمة.

رابعا : من التسامح : الرسول داعيا فحسب

كان من سماحة الإسلام أن أرسل الله نبيه محمداً ﷺ يدعو إلى سبيل ربه بالحكمة والموعظة الحسنة ويجادل بالتى أحسن لا يجبر أحداً

---

(١) الإسلام والنصرانية (المرجع السابق).

على قبوله دعوته، ولا يكره الناس على الدخول فى الإسلام مكتفياً بالحجة والإقناع، معلناً أنه لا سيطرة له على الضمائر، ولا سلطان له على القلوب، وظيفته الهداية والدعوة إلى الله بالحكمة والعقل ﴿ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ﴾ [النحل:١٢٥]. يدعو إلى الخير ويأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ويحذر عاقبة الظلم والطغيان، وليس من وظيفته ولا اختصاصه إحلال الهداية فى قلوب الضالين، وإيصال اليقين إلى نفوس الحيارى التائهين إنما ذلك لله وحده ﴿إِنَّكَ لا تَهْدِي مَنْ أَحْبَبْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ﴾ [القصص:٥٦].

خامسا : الإسلام انتشر بقوته الذاتية وليس بالسيف

وقد جاء صلوات الله وسلامة عليه بالشريعة السمحة الواضحة والملة القويمة والحنيفية المتسامحة مع كل الملل، جاء بدين الفطرة الذى تهفو إليه الألباب، وتطمئن له القلوب لأن فيه رشدها من الغى وهدايتها من الضلال وشفاءها من العمى، فهى ميالة إليه بطبيعتها محبة له بفطرتها، متى خلت من الموانع والعوائق لا تروم به بديلاً، ولا تختار سواه ديناً، وإن ديناً كهذا شأنه من التسامح والإنسانية ليس محتاجاً إلى القوة تسنده، ولا إلى السيف يعزز مركزه، ويشيعه فى القلوب، فهو بقوانينه العادلة ونظمه السمحة وتعاليمه المحببة إلى النفوس الكافلة لسعادة البشر فى معاشهم ومعادهم، غنى عن مظاهرة الحديد والنار، فهو دين لم يقم صرح جده، ولم يمتد وارف ظله، ولم يحتل مكانه الأول فى نفوس الخاصة والعامة تحت تأثير شئ ما غير الحجة والبرهان وغير ما جاء به من السماحة واليسر، ومن المبادئ العالية التى عليها وحدها – وإن كابر المبطلون – يقوم نظام الحضارة والعمران، وغيرهما عن أبى هريرة

رضى الله عنه أن النبى ﷺ قال: " ما من الأنبياء نبي إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر، وإنما كان الذى أوتيتُ وحياً أوحاه الله إلىَ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة "[1] يعنى أن معجزات الأنبياء السابقين – صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين – كان معظمها من قبيل الخوارق الحسية التى تجعل المشاهد يؤمن بها، فإذا مضى زمنها انقضت وانقطع أو كاد المصدقون لها، وأما معجزة نبينا محمد ﷺ أى معظم معجزاته وأهمها القرآن الكريم، فهو الزاخر بالحجج القطعية والبراهين العقلية لا تنفذ عجائبه ولا يخلق بكثرة الترداد، وكلما تعاقبت السنون وتوالت الأجيال، واتسع نطاق العلم وتقدمت الصناعات والفنون، عظمت قيمة هذا الكتاب، وظهر للناس صدق أخباره وحقيقة إعجازه، ومدى تسامحه مع أهل الأديان جميعهم، فبذلك كثر أتباع محمد ﷺ ودخل الملايين فى دين الله أفواجاً، فظهر أن قتاله ﷺ وجهاده الكفار والمنافقين لم يكن للإكراه على الدين ، وحمل الناس على الدخول فيه بالقوة والقهر؛ وإنما كان لدرء الفتنة وصد هجمات المعتدين، كان لحماية الملة وصيانة الدولة من عبث العابثين وكيد الأشرار والحاقدين، وهذا أمر لابد منه فى كل زمان ومكان فهو ضروري لكل أمة لها كرامة تحتفظ بها ودين تغار عليه ونظام يحرص على تنفيذه لم يخل ذلك دين سماوى ولا قانون وضعي، ومن أدار نظره فى مختلف القوانين السارية الآن وجدها تنص على استعمال الشدة والقسوة مع كل من يحاول العبث بنظام الدولة وشكل الحكومة أو يعتدي على حريات الناس وعقائدهم وغير ذلك من أنواع العبث والفساد في الأرض، وفى ذلك يقول الحق في محكم

---

(١) رواه البخاري في كتاب فضائل القرآن حديث رقم ٤٩٨١.

كتابه: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا﴾ [الحج:٤٠]، ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتْ الأَرْضُ﴾ [البقرة:٢٥١].

ومن هنا يُعلم سقوط ما يدعيه بعض الكتاب الغربيين وأشباههم من أن الدين الإسلامي دين غلبة وقهر لم يقم إلا على القوة والعنف ولم يترعرع إلا تحت بارقة السيوف، ﴿كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنْ يَقُولُونَ إِلا كَذِبًا﴾ [الكهف:٥]، ولو كان ما تشدق به هؤلاء له نصيب من الصحة لكان القسيسون والرهبان – نظراً لما لهم من المكانة في دينهم والتوغل في التمسك بعقيدتهم أولى بالإكراه والقتل ممن عداهم – مع أن نبينا محمد ﷺ نهانا عن قتلهم كما نهانا عن قتل النساء والأطفال، فمن وصاياه عليه الصلاة والسلام لبعض أمراء جيوشه " **اغزوا باسم الله فقاتلوا عدو الله وعدوكم بالشام، وستجدون في الصوامع منعزلين فلا تتعرضوا لهم، ولا تقتلوا امرأة ولا صبياً، ولا تقطعوا شجراً، ولا تهدموا بناء** " وكان رسول الله ﷺ إذا أقر أميراً على جيش أو سرية أوصاه في خاصته بتقوى الله عز وجل ومن معه من المسلمين، ثم قال: " **اغزوا باسم الله في سبيل الله، قاتلوا من كفر بالله، اغزوا ولا تغلو ولا تغدروا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا وليداً** " [(١)]، وعن عائشة رضى الله عنها قالت قال رسول الله ﷺ: " **إنما بعثني الله مبلغاً ولم يبعثني الله متعنتاً** " [(٢)] أى أن الله تبارك وتعالى بعثنى للناس مبلغاً وحيه معرفاً شرعه مبيناً لهم ما فيه صلاهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثنى الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم فى معاملاتهم، أو أكلفهم من

---

(١) رواه مسلم في كتاب الجهاد والسير حديث رقم ٤٦١٩.

(٢) رواه الترمذي في كتاب تفسير القرآن.

ما فيه صلاهم وقوام سعادتهم، ولم يبعثني الله جباراً متشدداً، أكمم أفواه الناس وأضغط على حرياتهم، فأشق عليهم في معاملاتهم، أو أكلفهم من الأعمال ما لا يطيقون وألزمهم من الدين ما هم له كارهون، ولذلك يقول الله تبارك وتعالى: ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، أي لا يصح ولا يتصور ولا ينفع الإكراه في الدين، لأن الدين أساسه الاعتقاد القلبي والإذعان الباطني، وهذا الأمر لا يجبر عليه المرء إجباراً، وإنما يقبله طوعاً واختياراً، فالدين بطبيعته يتأبى الإكراه عليه ﴿أَفَأَنْتَ تُكْرِهُ النَّاسَ حَتَّى يَكُونُوا مُؤْمِنِينَ﴾ [يونس:٩٩]، وهو خطاب من المولى عز وجل لنبي الإسلام محمد ﷺ، أي لا تكرهوا الناس، ولا تجبروهم على الدخول في دين الله تعالى، ولا تتعرضوا لهم بسوء ما داموا متمسكين بأحد الكتابين (التوراة والإنجيل) ولم يقاتلوكم أو يظاهروا عليكم أحداً دون أن يحصل منهم خيانة أو غدر.

ويُعضد هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رجلاً من الأنصار من بني سالم بن عوف يقال له الحصين كان له ابنان نصرانيان، وكان هو رجلاً مسلماً، فقال النبي ﷺ ألا استكرهما فقد أبيا النصرانية، فأنزل الله هذه الآية ﴿لا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ﴾ [البقرة:٢٥٦]، وينبغي أن يعلم إقرار الإسلام لليهودي أو النصراني على دينه وإعطاءه الحرية في القيام بشعائره حتى أنه أوجب على الابن المسلم إذا كان أبوه يهودياً أو نصرانياً، وطلب منه أن يحمله إلى دار عبادته لعجزه عن الذهاب إليها لوجب عليه أن يطيع أباه أو أمه في ذلك ويوصلهما إلى دار العبادة، ينبغي أن يعلم أن هذا ليس ضعفاً في الإسلام أو المسلمين، وإنما هي القوة الكامنة في الإسلام احتراماً للحريات وتوقيراً للديانات وأصحابها وتحقيقاً

لمبدأ العدالة والإنصاف، فالمسلم يعتقد أن الدين الذى يجب اعتناقه وبه تحصل السعادة فى الدنيا والآخرة هو الإسلام دون ما عداه ولكنه مع ذلك يرى من الواجب عليه ألا يتعرض لأحد من أهل الكتابين بسوء؛ فلا يسفك لهم دماً، ولا يهتك لهم عرضاً، ولا يأخذ منهم مالاً إلا بحق شرعى، ولا يجور عليهم فى حكم من الأحكام، ولا يحول بينهم وبين القيام بشعائرهم وواجبات دينهم، ولا يرى بأساً فى معاملاتهم وأكل طعامهم، والتزوج بالمحصنات من نسائهم إلى غير ذلك مما هو مسطور ومشهور، فالدين الإسلامي يزن الأمور بقسطاسها المستقيم، فلا يهضم حقاً من حقوق الإنسان الطبيعية ولا يعتدى على شئ من حرياته، ولقد كان له سلطان وكان فى أبنائه شدة وقوة، لكنهم لم يتخذوا ذلك أداة للسلب والنهب واغتصاب الحقوق الشرعية، ولم يستعملوا الشدة قط لخنق الحريات وإكراه أحد على ما لا يريد، فأين هذا مما نراه اليوم فى "فلسطين والقدس العربية الإسلامية ثالث الحرمين وأولى القبلتين حيث يرتكب العدو الصهيونى أقسى ما عرفه التاريخ الإنساني من الوحشية والهمجية وارتكاب المذابح والمجازر التى تشيب من هولها الولدان.

والمسلمون غدوا لا جمع يجمعهم ... واستمرءوا الذل من أشرار صهيون

فأين أبطالنـــا الشجعـــان أين هم ؟ ... يؤدبون عصابـــــات لشـــــارون

أين حماة الإسلام الذين يقلمون أظفار هؤلاء المعتدين ؟ ويؤدبون هؤلاء الأشرار الذين لا همّ لهم إحداث القلاقل، والتعرض للحرمات وتدمير الديار على رؤوس الأبرياء ﴿يَاأَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُمْ مِنْ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً﴾ [التوبة:١٢٣].

سادسا : صور من تسامح الرسول مع غير المسلمين

شتان ما بين موقف وموقف: فموقف اليهود مع الرسول ﷺ وموقفه ﷺ منهم فى خيبر يحسن أن نقف قليلاً لنسجل حسن مقابلة النبى ﷺ ليهود خيبر بالرغم مما فعلوه معه ﷺ من مكائد يندى لها جبين الإنسانية – كان من بين ما غنم المسلمون من غزوها عدة صحائف من التوراة فطلب اليهود ردها فأمر النبى ﷺ بتسليمها لهم – ويا له من موقف جليل لا يتخذه غير المصطفى ﷺ وغير خلفائه وحاملى المشعل من بعده[1].

إن عظمة هذا الموقف تبدو فى أجلى معانيها إذا لاحظنا أن شريعة الحروب فى ذلك الحين كانت تعطى المنتصر حق التصرف المطلق بحكم الفتح فى شخص المنهزم، وكل ما يملك ومن لـــه عليه ولاية، وأن هذا الزمن لم يكن يعرف ميثاق الأمم المتحدة ولا ميثاق حقوق الإنسان بما ينص عليه من احترام الشعائر الدينية ورعاية الأسرة وعدم التفريق فى المعاملة بسبب اختلاف اللون أو الجنس أو الدين أو الوطن.

وإذا لاحظنا كذلك أن اليهود كانوا أشد أعداء الإسلام خصومة وأكثرهم إساءة إليه، وأخبثهم تآمراً على النبى ﷺ وأصحابه وأنهم لو ملكوا من أمر المسلمين شيئاً لما تورعوا عن التنكيل بهم، وإذا لاحظنا أن الرومان حين فتحوا (أورشليم) أحرقوا الكتب المقدسة وداسوها بأرجلهم، وأن النصارى فى حروب اضطهاد اليهود فى أسبانيا أحرقوا كتبا للتوراة ولكن محمداً ﷺ والذين آمنوا معه يحترمون الصحف التى أنزلت على الرسل من قبله تقديساً لكلمات الله وتوصيات أنبيائه.

---

(١) القيم الخلقية والإنسانية فى الغزوات، الأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.

لقد كانت صفية بنت حُيىّ بن أخطب إحدى سبايا (خيبر)، وقد قتل أبوها، وكان من زعماء يهود بنى النضير، كما قتل زوجها كنانة بن الربيع فى الحرب، فقيل للنبى ﷺ "صفية سيدة بنى قريظة والنضير لا تصلح إلا لك" فأعتقها ﷺ وتزوجها، وفى هذا الزواج دلالة واضحة على تآلف جميع أفراد الجماعة حتى العصاة منهم بالرفق بهم الإحسان إليهم من طريق القربى والمصاهرة وما إليها من أسباب التقارب والوحدة لما تكفله لها من مزيد من القوة المعنوية التى لا تقل عن القوة التى يكفلها الانتصار فى الحرب وحيازة الغنائم، ولأن مثل هذه الرابطة رابطة المصاهرة من تقاليد العظماء الفاتحين الذين كانوا يتزوجون من بنات عظماء الممالك التى يفتحونها، وفى ذلك تخفيف عن مصائبهم وحفظ لكرامتهم وزيادة قربى عليهم ضماناً لخدمة مصالحهم واستقرار السلام فى أوطانهم وربوعهم.

الرسول ﷺ ينادى بالسلام فى كل موقف، مثال فتح مكة:

إن الوقائع الدالة على مقصد الرسول ﷺ كما سطرها التاريخ تطالعنا فى كل موقف بحرص الرسول ﷺ على السلام وحرصه أيضاً على حقن الدماء، وعلى هذا الأساس جعل النبى خطته فى مباغتة قريش على غرة منهم فلا يجدون له دفعاً فيستسلمون من غير أن يكون ثمة قتال وإنجازاً لهذه الغاية تكتَّم الأمر وأحاط خطته بسياج من السرية فلم يفض به إلى أحد حتى لزوجاته، ولم يخبر المسلمين أنه سائر إلى مكة إلا بعد أن أمرهم بالتجهيز فتجهزوا ودعا الله أن يأخذ العيون والأخبار عن قريش حتى لا تقف عن مسيرهم على نبأ، وكان الهدف من ذلك ألا يترك

للمشركين الفرصة حتى يستعدوا ويعبئوا قواتهم لقتال المسلمين ليأخذوا الأعداء على غرة فيتحقق الفتح دون إراقة دماء، وتحقق الفتح بفضل صدق توجه الرسول ﷺ وصدق توجه أصحابه، ولذلك أمر الله نبيه ﷺ أن يتوجّه بالشكر إلى ربه بعد هذا النصر المبين والفتح الأعظم ﴿إِذَا جَاءَ نَصْرُ اللَّهِ وَالْفَتْحُ * وَرَأَيْتَ النَّاسَ يَدْخُلُونَ فِي دِينِ اللَّهِ أَفْوَاجًا * فَسَبِّحْ بِحَمْدِ رَبِّكَ وَاسْتَغْفِرْهُ إِنَّهُ كَانَ تَوَّابًا﴾ [النصر:١-٣].

حرص الرسول الفاتح على كسب معركة الفتح دون إراقة دماء ومن غير حرب، ويتجلى ذلك فى إصدار أمره إلى فرق الجيش كلها ألا تقاتل، وألا تسفك دماً إلا إذا أكرهت على ذلك إكراهاً، واضطرت إلى ذلك اضطراراً، وتجلى ذلك أيضاً فى استبدال قيس بأبيه سعد بن عبادة الذى نصّبه أميراً على فرقة أهل المدينة ليدخلوا مكة من جانبها الغربى وحين بلغه قول سعد وهم يتأهبون "اليوم الملحمة"، غضب الرسول ﷺ وقال: " اليوم يوم المرحمة " وفى سبيل حقن الدماء لم يعترض النبى ﷺ على رغبة عمه العباس بن عبد المطلب فى السفارة إلى قريش لتخلى بين ابن أخيه وبين وضع يد المسلمين على البيت الحرام الذى جعله الله مباركاً، ومثابة للناس وأمناً وليقنعها أنه لا جدوى من قتال هذا الجيش العظيم الذى لا عهد للعرب به من الجنود والكماة والأقوياء.

ولما طلب عمر بن الخطاب أن يضرب عنق أبى سفيان رأس الشرك حينما شاهده مع العباس قال الرسول لعمه وقد رجا أن يجبر أبا سفيان أذهب به يا عباس إلى رحلك فإذا أصبحت فأتنى به وتشهد خيمة رسول الله ﷺ فى الصباح مواجهة حاسمة بين الحق والباطل، ويضرب النبى العائد المثل الأعلى فى إيثار السلام على الحرب إذ يسلم أبو سفيان،

ويقول العباس للنبى ﷺ: يا رسول الله إن أبا سفيان رجل يحب الفخر فاجعل له شيئاً فيقول رسول الله ﷺ: نعم، من دخل دار أبى سفيان فهو آمن [1]، ومن أغلق عليه بابه فهو آمن، ومن دخل المسجد فهو آمن ومن ثم يهيئ الرسول ﷺ كل فرصة ويفتح كل باب ويمهد كل سبيل للسلام لا عن خشية بأس قريش وإنما عن رغبة فى السلام وحرصاً على استقراره فى أم القرى التى أكرمها الله إذ أوحى الله إلى نبيه إبراهيم أن يقيم فيها قواعد البيت الحرام والتى أكرمها الله حق الإكرام، إذ جعلها ميلاد صاحب الرسالة العظمى سيدنا محمد ﷺ.

ثمة دليل آخر وموقف جليل ينهض على تأكيد قيمة السلام فى الإسلام، إذ يفتح الله على رسوله مهبط الوحى فيدخله والمسلمون آمنين مطمئنين، وتضرب قبة للنبى ﷺ على مقربة من قبرى أبى طالب وخديجة، ويُسأل الرسول هل يريد أن يستريح فى بيته ؟ فيجيب الرسول ﷺ كلا، فما تركوا لى بمكة بيتاً، ثم يخرج ويمتطى ناقته، ويسير بها حتى يبلغ الكعبة، فيطوف بالبيت سبعاً على راحلته يستلم الركن بمحجن فى يده، وحين يقضى طوافه يدعو عثمان بن طلحة، فيفتح الكعبة فيقف سيدنا محمد ﷺ على بابها، ويتكاثر الناس فى المسجد فيخطبهم قائلاً : ﴿ يَاأَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ﴾ [الحجرات:١٣].

ثم يسألهم الرسول ﷺ يا معشر قريش : ما تظنون أنى فاعل بكم ؟ قالوا خيراً، أخ كريم وابن أخ كريم قال: اذهبوا فأنتم الطلقاء، ولو شاء الرسول الكريم لأمر بقطع رقاب القوم الذين بغوا وطغوا فى الأرض

---

(١) انظر الحديث في سنن أبي داود – كتاب الخراج.

وأكثروا فيها الفساد، والذين اتخذوا من دون الله أرباباً، والذين كم اشتد به وبصحابه أذاهم، واشتدت قطيعتهم وائتمروا به ليقتلوه والذين عذبوه وأصحابه وقاتلوه فى بدر وفى أحد وحاصروه فى غزوة الخندق، ولكنها قيمة الإسلام الحقيقية التى يغرسها الله فى نفس نبيه الكريم وصحابته الأجلاء، ويحصل للمسلمين فى رسول الله قدوة صالحة وأسوة حسنة فهو يعفو عند المقدرة ليستل من نفوس قريش باعث الحقد والضغينة، ويقضى على عوامل الشحناء، ويزيل الغل من قلوبهم ويطهرهم من رجس الشر ويوثّق بينهم عرى الألفة والمحبة بعد أن دخلوا فى دين الله أفواجاً، والمثل الأعلى الذى يضربه محمد فى فتح مكة إنما يضربه للناس فى كل مكان وزمان إذ يؤكد بهذا السلوك الكريم معنى السلام كحقيقة أساسية فى العقيدة الإسلامية، وضرورة حيوية لا غنى عنها لصالح العالم وخيره.

ولكي يعيش المرء فى أمن يكفل له النفع لبناء حياة الرخاء والإسهام فى بناء العقيدة وتنمية المجتمع يجب أن يؤمن بالسلام سبيلاً لذلك، وأن يدعم إيمانه بالعمل، فإذا جاءه أخ له فى الإنسانية يبغى التعارف والألفة والتعاون فليمد له يده وليمنحه ثقته وليتعاون معه فذلك هو الطريق القويم.

الطريق القويم الذى تصلح به النفوس ويزول منها القلق فيصلح المجتمع وتتقدم البشرية. إن قولة السلام واجبه على المسلم كلما جاءه أحد المؤمنين بدين الله الحق ﴿وَإِذَا جَاءَكَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِآيَاتِنَا فَقُلْ سَلَامٌ عَلَيْكُمْ﴾ [الأنعام:٥٤]، بل ولو جاءك أحد من أهل الديانات المشركين وطلب منك النجدة لوجب عليك أن تسارع وتخف إلى نجدته يقول تبارك وتعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ

مَأْمَنَهُ﴾ [التوبة:٦]، بل إن قولة السلام واجبة حتى لمن اتسم بسوء الخلق حتى لا يتحول الأمر إلى صراع ينتهى بالخصومة والعدوان، وتترسب عنه أحقاد كامنة لا تلبث أن تشعل الحرب من جديد أخذاً بالثأر، وتتوالد بذلك العداوات وتستمر الحروب التى كانت بدايتها لا تعدو لفظاً جارحاً أو سلوكاً نابياً يقول تعالى:﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ الْجَاهِلُونَ قَالُوا سَلاماً﴾ [الفرقان:٦٣].

سماحة الرسول وأصحابه في معاملة غير المسلمين :

حينما جاء الصديق أبو بكر بأبيه أبى قحافة – وكان ضريراً – لم يهد الله قلبه للإسلام، فلما رآه النبى ﷺ قال لأبى بكر "هلا تركت الشيخ فى مكانه حتى أكون أنا آتيه فيه" فقال أبو بكر الصديق هو أحق أن يمشى إليك من أن تمشى إليه أنت، فأجلس الرسول الشيخ بين يديه ومسح صدره، ثم قال أسلم فأسلم وحسن إسلامه، ويمثل هذا المشهد أكثر من قيمة روحية أظهرها رسول ﷺ الله إذ نلتقى بقيمة التواضع والسماحة والعفو عند المقدرة ونلتقى بقيمة الرحمة بالأعمى والشيخ وغيرهما من الضعفاء والتعاطف معهم ولو كانوا من غير المسلمين، كما نلتقى بقيمة الحب والتقدير للأعوان المخلصين، فلقد أكرم سيدنا محمد ﷺ والد صفيه أبى بكر الصديق رضى الله عنه شفقة عليه وتكريماً للصديق الجليل.

ولمّا دخل عمرو بن العاص مصر واستولى على "بلبيس" وجد بها أرمانوسة بنت المقوقس، فلم يمسها بأذى ولم يتعرض لها بشر بل أرسلها إلى أبيها فى مدينة (منف) مكرمة الجانب معززة الخاطر فعدّ المقوقس هذه الفعلة جميلاً ومكرمة وحسبها له حسنة، وساعد فعله هذا فى خلق جو

من الحب والود بين المسلمين والأقباط، وحينما فتح المسلمون مصر حافظوا على الكنائس والأديرة وحرروا الإنسان بداية ونهاية.

وقد جاء فى معاهدة عمرو بن العاص لأهل مصر هذا ما أعطى عمرو بن العاص أهل مصر من الأمان على أنفسهم وأموالهم، وملتهم وكنائسهم وصلبهم، وبرهم وبحرهم لا يدخل عليهم شئ من ذلك، ولا ينقض[1].

حقوق أهل الكتاب في الدولة الإسلامية : أصل الحقوق

وقد ثبتت لأهل الكتاب حقوق تقوم كلها على قاعدة أصلية: أن لهم مثل ما للمسلمين، وعليهم مثل ما على المسلمين إلا ما استثنى بنص أو إجماع، وذلك هو مقتضى الشركة فى الوطن الواحد، فأول الحقوق التى تشمل حمايتهم من كل عدوان خارجي ومن كل ظلم داخلى، هو تمتعهم بحماية الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامي.

حق الحماية :

فأما الحماية من العدوان الخارجي فيجب لهم ما يجب للمسلمين، ويجب على الحاكم المسلم أن يوفر هذه الحماية لهم و"لو كانوا منفردين ببلد" لأمن أحكام الإسلام جرت عليهم وتأبد عقدهم، فلزمه ذلك كما يلزمه للمسلمين. بل لقد نص الفقهاء بلسان ابن حزم الظاهرى – على أن "من كان فى الذمة وجاء أهل الحرب إلى بلادنا يقصدونه، وجب علينا أن

---

(١) المسيحية والإسلام فى مصر: د. حسين كفافى، الهيئة المصرية للكتاب.

نخرج لقتالهم بالكراع والسلاح، ونموت دون ذلك، صوناً لمن هو فى ذمة الله ورسوله، فإن تسليمه دون ذلك إهمال لعقد الذمة".

ويعلق القرافى – المالكي – على هذا النص فيقول: "فعقد يؤدى – إلى إتلاف نفوس المسلمين وأموالهم فى سبيل الدفاع عن أهل الكتاب إنه لعظيم".

وحين كانت القيادة الفقهية الراشدة آخذة مكانها الصحيح فى سلم القيادة الإسلامية استمسكت بذلك حتى أصر شيخ الإسلام ابن تيمية على إطلاق من فى أسر التتار من أهل الذمة مع إطلاق المسلمين. فقال لقائد التتار "لا نرضى إلا بافتكاك جميع الأسرى من اليهود والنصارى فهم أهل ذمتنا ولا ندع أسيراً لا من أهل الذمة ولا من أهل الملة" "وأما الظلم فى العلاقات الداخلية، فقد تكاثرت على تحريمه نصوص القرآن والسنة. ونطقت باستنكاره فى خصوص أهل الذمة أحاديث رسول الله ﷺ والآثار عن الصحابة، حتى صرح غير واحد من الفقهاء بأن قواعد الإسلام تقتضى أن ظلم الذمى أشد إثماً من ظلم المسلم[1].

وحق الحماية يشمل الدماء والأنفس والأموال. حتى قال علي رضى الله عنه : "من كانت له ذمتنا فدمه كدمنا وديته كديتنا".

وفى الفقه الإسلامي آراء تختلف وتتفق. يتخير منها الناظر ما وافق هذه الأصول فيقبله. ويرد ما لا يوافقها ولا يعمله والأمثلة على ذلك كثيرة.

---

(١) حقوق غير المسلمين فى المجتمع الإسلامي، ص ١٠، طبعة ١٩٧٧م.

حرمة الأنفس والأموال

والأصح : حرمة مالهم ولو لم يكن متقوماً فى نظر الإسلام كالخمر والخنزير. وجواز إقامة دور العبادة التى يتعبدون فيها. وقبول شهادتهم إلا فى الأمور الدينية للمسلمين من نحو الزواج والطلاق وما يجرى مجراهما. وجواز أمان الفرد منهم موقوف على إجازة الإمام، فإن لم يجزه وجب عليه رد المؤمن إلى مأمنه.

حق تولي الوظائف العامة

ويجب ضمان الحياة الكريمة لهم عند الكبر، بل إن ذلك من فروض الكفايات: إذا عجز عن القيام به بيت المال وجب على المسلمين كافة، لا يسقط إلا بأدائه ويجب على الحاكم المسلم فك أسرهم من أيدى المحاربين، والحق جواز تولى القادر منهم الوظائف العامة فى الدولة إلا ما كان ذا صبغة دينية كالإمامة ورئاسة الدولة وقيادة الجيوش فى الجهاد والولاية على الصدقات ونحوها[1].

الواجبات المقابلة للحقوق

ومع هذه الحقوق يثبت على أهل الكتاب واجبات أولها: أداء التكاليف المالية من خراج وضرائب وهم فى تكليفهم بالخراج والضرائب هم والمسلمون سواء، فليس فيها شئ يجب باختلاف الدين. وإنما تجب على أنواع الأموال والتجارات والأراضي المزروعة دون نظر إلى صاحب أى منها: مسلماً كان أو غير مسلم.

---

(١) الأقباط والإسلام: للدكتور محمد سليم العوا.

وثانيها: التزام أحكام القانون الإسلامى. لأنه قانون الدولة التى هم مواطنوها، ويحملون جنسيتها، وهذا كما يجب عليهم يجب على المسلمين من أبناء الدولة. فلا مزية فيه لأحد، ولا نقص يدخل به على أحد.

وثالثهما: مراعاة شعور المسلمين، فلا يجوز لهم أن يسبو الله ولا رسوله ولا دينه ولا كتابه جهرة، ولا أن يروجوا من الأفكار ما ينافى عقيدة الدولة ما لم يكن ذلك جزءاً من دينهم كالتثليث والصليب عند النصارى، وعلى أن يقتصروا فى ذلك على أبناء ملتهم. ولا يذيعونه فى أبناء المسلمين ليفتنوهم عن دينهم.

وهذا الواجب يقابل الواجب الملقى على المسلم ديناً باحترام ديانات الأنبياء قبل محمد ﷺ، والإمساك عن جدال أهلها إلا بالتى هى أحسن، وبالإحسان إليهم أداء لحق ذمة الله ورسوله والمؤمنين، وإذا انتقلت تلك الحقوق والواجبات فى الدولة الإسلامية العصرية من النطاق العقدى إلى النطاق الدستورى، فإن ذلك لا يؤثر بشئ فى التزام الدولة الإسلامية العصرية بها قضاء من حيث هى واجب أو حق دستورى، وديانة من حيث هى راجعة فى أصل تقريرها إلى وضع دينى، وفى ذلك مزيد تحقيق لمصلحة غير المسلمين فى الدولة الإسلامية، وزيادة ضمان لحقوقهم، فإن ما أوجبه الدين لن يستطيع حاكم مسلم أن يتحلل منه أو يجاهر بعدوان عليه أو إنكار له.

صور من عدالة المسلمين مع الأقباط

وقد أطلقوا حرية العبادة، ولم يضغطوا على أحد فى اعتناق الإسلام، وأنهم يجلون الرهبان والبطاركة والقساوسة، وعكس ما سبق هو ما يعانيه الشعب المصري من والى الرومان الذى أرهقهم وأذاقهم صنوف

العذاب ألواناً، ليدفعهم لاعتناق ملة الإمبراطور ويتركون الأرثوذكسية المصرية، وأشاع فيهم العذاب والعسف والقتل وقضى تعذيبه لشقيق (باباهم بنيامين) أبشع ما يكون التعذيب وفى النهاية ألقاه فى البحر داخل جوال.

وهكذا استطاع المسلمون أن يغزوا قلوب (الأقباط) المصريين بشجاعتهم، وهمتهم، وفروسيتهم من جهة، وبساطتهم، ورقتهم، وحسن معاملتهم، وقرب عاداتهم مما هم عليه من عادات، وطرق معيشتهم البسيطة من جهة أخرى، وكان المصريون يتساءلون: ألا تعجبون من هؤلاء القوم المسلمين يتغلبون على جنود الاحتلال الطغاة، وهم – أى المسلمون – قليلو العدد والقوة ؟ فيجيب أحدهم : إن المسلمين يأتون محررين، فاستطاعوا أن يلمسوا قلوب المصريين، وكان يتردد فى كل مكان أن هؤلاء القوم لا يتوجهون إلى أحد إلا ظهروا عليه، أى إلا انتصروا عليه.

وما أن انتهى عمرو بن العاص من القضاء على الحاميات العسكرية لجيش الاحتلال البيزنطي، وتطهير القلاع والأبراج المنتشرة على أطراف الحدود المصرية والمواقع الاستراتيجية، وبعد تصفية الجيوش المنتشرة ، وبعد أن انتهت مراسم توقيع معاهدة الإسكندرية وجلاء البيزنطيين عن الأراضى المصرية، وتأمين الحدود انتهى كل ذلك حتى بدأ عمرو بن العاص فى لقاءاته مع القيادات الشعبية المصرية. وخلال الأعوام الثلاثة الأولى التى أمضاها عمرو فى مصر فى أحداث وقلاقل، وقتال وحروب، وهجوم ودفاع، فى مطاردة لفلول الهاربين من

بقايا جيش الاحتلال فى كل مكان. انتهى كل ذلك وعاش الجميع مسلمون ومسيحيون فى أمن وسلام.

وفى هذا الصدد يحكى فى تراث الكنيسة القبطية أنه بعد أن حرر عمرو بن العاص مصر من الروم جاءه حوالي سبعون ألفاً من الفارين والهاربين من حكم الروم (البيزنطيين)، جاءوا وهم شبه عراة فى حالة من البؤس يرثى لها، ممزقى الثياب، وطالبوا عمرو بحريتهم الدينية، فاستجاب عمرو لهم، وفى نفس الوقت انزعج عمرو لما وصل إليه حال المصريين، وأمر على الفور أن يرسل إلى جميع الأقاليم والكفور وكل الجهات، يدعو فيها (البطريرك) الهارب للعودة إلى مقره دون خوف مطلقاً، وأمّنه على نفسه وعلى مرافقيه من الرهبان والنساء، وبالفعل عاد (البطريرك) على حسن صنيعه، وأظهر له ولاءه، وتعانقا فى ود وحب، بعد سنين طويلة من الظلم والعذاب، والقلاقل، وذرفت الدموع، وأعطاه عمرو الكنائس التى اغتصبها الروم، وساعده فى إعادة بنائها وترميمها.

واطمأن البطريك على أن السلام سيعم البلاد ويظل يرفرف على مصر والمصريين جميعاً، من أسلم ومن بقى على مسيحيته وسيكون هو وأهله وعشيرته وأمواله وممتلكاته فى أمان واستقرار.

وهكذا استجاب عمرو بن العاص لطلبهم وأظهر ميله للأقباط فازدادوا ثقة فيه وخصوصاً لمّا وجدوه رحيماً بهم، ويسمح لهم بإقامة الكنائس وسط الفسطاط، وفى هذا الصدد يروى أن عمرو بن العاص اشترى قطعة أرض فى مدينة الفسطاط من سيدة يهودية لإقامة مسجد عليها وهو المسجد الذى أصبح مسجد عمرو بن العاص فيما بعد.

ومع استقرار الحكم فى مصر، والأمن والأمان الذى استمتع به المصريون مع عمل عمرو بن العاص، وإعطاء حرية العقيدة للمصريين وجه البطريرك التفاته إلى الأديرة التى خرّبها الفرس أثناء حكمهم واستعمارهم لمصر، واجتهد فى إصلاحها، فرمّم وعمَّر كل تخوم وادى النطرون وبنى دير الأنبا بشيوى، وأعاد إليه رهبانه، ولما تجمّعوا واشتد عودهم، وأخذوا قسطهم من الراحة قصد بهم إلى دير أبى مقار فرمموه، وبنوا الكنيسة الكبيرة.

وأيضاً قد ساعد عمرو بن العاص المصريين فى بناء الكنائس وترميمها التى تهدمت إبان حكم الرومان.

وهكذا استمرت مسيرة السلام فى مصر بعد تحريرها وغردت طيور السلام فى كل ربوع مصر.

واستمر الشعب المصرى (القبطى) بعد ذلك على مدى قرون مسلمين ومسيحيين فى زورق واحد يبحر بهم فى غياهب التاريخ تتقاذفهم أمواجه.

وفى مجال الاستقرار لدخول الإسلام فى مصر فقد قام عمرو ابن العاص بإصلاح القناة التى تربط بين النيل والبحر الأحمر – والتى كانت تسمى قناة (داريوس) الذى أدى إهمالها إلى عدم صلاحيتها للملاحة فقام عمرو بتطهير القناة، وسميت بخليج أمير المؤمنين فعادت طريقاً صالحاً للملاحة.

والإسلام جاء إلى مصر بروحه التى لا تفاضل بين الناس بسبب: الحسب والنسب واللون والجنس والدين فمعيار التفاضل والتميز هو التقوى بمعنى السلوك القويم، لذلك اختلط المسلمون بالمصريين، واندمجوا

معهم وتزاوجوا بهم، وكان لفطرية الإسلام وبساطته أن أباح الزواج من النساء الكتابيات، والمصاهرة بين الشباب المسلم وبين الفتيات المصريات اللاتى فقدن عائلهن إبان التعذيب والتقتيل الفارسى والبيزنطى، وأيضاً خلال المشاركة فى الحياة الاجتماعية، فالإسلام أباح معاشرة ومصاحبة أهل الكتاب فى ضوء الكتاب والسنة النبوية، وطعام المسلمين حل لهم، وطعامهم حل للمسلمين، وتم إسلام هاتيك الزوجات من فعل المعاشرة الطبيعية، وكان لهذا الاختلاط والمعايشة أثره البالغ فى انتشار الإسلام والثقافة الإسلامية، فضلاً على أثره فى انتشار اللغة العربية.

كما حرص الإسلام، وحسبما ورد فى الآيات القرآنية المتعددة والسنة النبوية، على الدعوة السلمية، والإقناع وعدم الإكراه فى الدين والمجادلة بالحسنى، وعدم الالتجاء إلى الحرب إلا لضرورة الدفاع عن الإسلام، والديار الإسلامية، ولذلك بعث الرسول الكريم بكتب إلى حكام الدول المختلفة منها رسالة إلى المقوقس والى مصر من قبل الدولة (البيزنطية) يدعوه إلى الإسلام.

دور المصريين في بناء الحضارة الإسلامية

فكان دخول الإسلام إلى مصر، والتحول من اللغة المصرية (القبطية) إلى اللغة العربية وهما من أصل لغوي واحد، بل وشارك الذين اعتنقوا الإسلام من مسيحيين ويهود فى بناء الحضارة الإسلامية ديانة ولغة، وأيضاً حياة اجتماعية، وهو ما يناقض تماماً موقف المصريين من الحضارتين البيزنطية ومن قبلها الرومانية رغم ما أصاب المصريين من اضطهاد وتعذيب لإجبارهم على نقل الحضارة البيزنطية، وهذا المسلك من جانب المصريين يؤكد أن التحول إلى الإسلام واللغة العربية لم يتم

بالإكراه، إذ أن العلاقة بين كتائب تحرير مصر من الروم، والشعب المصرى كانت علاقة كلها ود وإخاء ووفاء، وقد أعطى الإسلام المصريين حلولاً لكل مشاكلهم الحيوية اليومية، فأصبحوا يعيشون مطمئنين مستبشرين بحاضرهم متفائلين بمستقبلهم، إذ أصبح كل واحد منهم يأخذ حقه كاملاً غير منقوص كأحد أفراد المسلمين، ينعم هو وأسرته بجو من السعادة والرفاهية.

وبمقتضى عقد الذمة تلتزم الدولة بتأمينهم، وحمايتهم فى دار الإسلام والدفاع عنهم، الأمر الذى ترتب عليه معاملتهم معاملة حسنة، والتسوية بينهم وبين المسلمين فى الحقوق والواجبات، إعمالاً للمبدأ العام الذى جاء ذكره من قبل، الذى أمر به الإسلام بالنسبة لأهل الذمة "لهم ما لنا وعليهم ما علينا" فتحسن وضع المصريين بالمقارنة لما كان عليه حالهم وقت الحكم البيزنطى، لدرجة أنهم لم يكتفوا بمعاونة المسلمين أثناء تحرير مصر؛ بل ساندوهم ضد الروم حينما حاول هؤلاء استعادة مصر وفتح الإسكندرية عام ٢٥ هجرية.

وذكى من روح التسامح مع المصريين الأحاديث النبوية العديدة ومنها: "أن الله سيفتح عليكم بعدى مصر فاستوصوا بقبطها خيراً؛ فإن لهم منكم صهراً وذمة"، وجاءت "قبطها" فى حديث الرسول تفيد أهل مصر المصريين، وتجلت روح التسامح هذه فى المظاهر العديدة، منها حرية العقيدة، فقد تمتع مسيحيو مصر بحرية العقيدة خلافاً لما كان عليه حالهم فى العصر البيزنطى، ومن قبل الاستعمار الفارسى، ومن قبل الاستعمار الرومانى فبعد تحرير مصر والإسكندرية أعاد عمرو بن العاص البطريرك بنيامين إلى رئاسة الكنيسة الأرثوذكسية، والذى حضر إلى

مقابلة الوالى بعد أن أمّنه على حياته وحياة كل من فى عقيدته بعد هروب استمر ثلاثة عشر عاماً قضاها فى البرارى والكهوف هرباً من ظلم واضطهاد الروم، وبعد تعيين بطريرك ملكانى بدلاً منه، وهكذا بدأ البطريرك الشرعى يمارس قيادته.

وقد تم ترميم ما تهدم من كنائس فى عهد الرومان، كما تم بناء كنائس جديدة فقد بنيت كنيسة مار مرقس بالإسكندرية فيما بين عامى ٣٩ – ٥٠ هجرية، كما بنيت كنيسة بالفسطاط فى حارة الروم فى ولاية (مسلمة بن مخلد) فيما بين عامى ٤٧ – ٦٨ هجرية، ومن ناحية أخرى تجلت روح التسامح والود والعرفان بين المسلمين والمصريين، فقد انتصر المسلمرن للمصريين (الأرثوذكوس) على أعدائهم فى المذهب وهم الملكانيون، وردوا إليهم الكنائس والأديرة التى كانوا قد استولوا عليها فى عهد الروم. كما أن الخلفاء كانوا يتدخلون لنصرة المسيحيين إذ اشتكوا من عسف ولاة مصر معهم، وهكذا يتجلى لنا مدى سماحة المسلمين مع غيرهم من الأديان الأخرى وسائر الملل والنحل.

المراجع

١. الأقباط والإسلام، للدكتور محمد سليم العوا، دار الشروق، ١٩٨٧م.

٢. الإســـلام والنصـــرانية مع العلم والمدنية، للإمام محمد عبده، طبعة القاهرة، ١٩٥٤م.

٣. الترغيب والترهيب للمنذرى ، مطبعة الحلبى ، ١٩٣٣م.

٤. الحلال والحرام، للدكتور يوسف القرضاوى، مطبعة عيسى الحلبى، ١٩٥٦م.

٥. الديموقراطـــية الإســـلامية، للدكتور عثمان خليل، ١٩٥٨م، المكتب الفنى للنشر.

٦. السيرة النبوية ، لابن كثير، مطبعة عيسى الحلبى، ١٩٥٧م.

٧. العدالـــة الاجتماعـــية فى الإسلام، للأستاذ سيد قطب، دار الشروق، ١٩٥٨م.

٨. القـــيم الخلقـــية والإنســـانية فى الغزوات، للأستاذ حسن فتح الباب، مطبعة الأزهر، ١٩٧١م.

٩. غـــير المسلمين فى المجتمع الإسلامى، للدكتور يوسف القرضاوى، ١٩٧٧م.

١٠. مـــن ســـماحة الإســـلام فى النصرانية، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.

١١. محاضـــرات فـــى النصرانية ، محمد أبو زهرة، دار الفكر العربى، ١٩٥٨م.